في ذكرى رحيل الناقد محمد النويهي

حديث لم يُنشر...

أجراه: ماجد السامرائي

إنه لقاء قديم.. بيننا اليوم وبينه حوالي عشر سنين، مضت تحملنا وتحمله.. ولكنه لم يقل، أو يكتب، أو يضف خلالها الكثير الى ما سبق أن قال وكتب في شؤون الأدب المختلفة..

ولستُ أدري لماذا لم ينشر هذا الحديث في حينه... ولماذا بقيتُ محتفظاً به في «الارشيف الصوتي» الخاص.. ولماذا بقي حتى الآن، على الرغم من مضيّ عامين على رحيله؟

كلّها مصادفات.. كما هي مصادفة أن يُنشر في هذا الوقت.. تماماً كما الحياة مصادفة.. والموت أيضاً..

جرى هذا اللقاء في بغداد.. في نهاية شهر آذار ١٩٧١.. حين حضر الدكتور محمد النويهي «مهرجان المربد الشعري الأول» الذي عقد في مدينة البصرة.. وأسهم فيه: ناقداً جريئاً ومتميزاً، قال كلمته في الشعر كما تكوّنت عنده عبر حسّه الفني وهو يتلقى شعرهم.. فأغضب بها اكثر من شاعر، ومشايع لهذا الشاعر أو تابع لذاك. ولم يخشَ في «كلمة النقد» لومة لائم..

تلك واحدة من الذكريات العزيزة التي أحملها عن ذلك الناقد الفذّ في أول، وآخر لقاء لي معه.. أستعيدها اليوم، وأنا أنشر نصّ الحديث الذي كنتُ أجريته معه في ذلك التاريخ.. جاعلاً منه تحية لذكراه، واستعادة لمواقفه، وتأكيداً لاعتراف بمكانته في ثقافتنا المعاصرة.

أصرّ، في بدء الحديث، أن يسجل شيئاً.. ويؤكد موقفاً.. قال:

– «كنتُ الى ما يقرب من ثلاثين سنة أتوق الى أن أزور العراق الذي طالما درستُ شعراءه وأُدباءه وقرأتُ عنه...»

وأضاف، وهو يتذكر:

– «.. إنّ أول خطاب بلغني من أحد قراء كتبي كان من قارىء العراق.. وان أول مقالة نقدية كُتبت في تقدير كتبي كانت مقالة لكاتب عراقي كتبها في صحيفة عراقية..

لا شك أن العراق ذلك القطر المجيد الذي شاهد ترعرع الحضارة العربية الاسلامية القديمة، ثم شاهد في عصرنا الحديث إنطلاقة الشعر الجديد، هو القطر الاول الذي يجب أن يحجّ إليه كلّ مهتم بدراسة الأدب العربي، قديمة وحديثة»..

ثم كان الحوار:

★ درستم التراث الشعري العربي من منطلق خاص. فهل لنا هنا أن نتبين الأُسس والمنطلقات التي منها كانت أساسيات كتابكم «في الشعر الجاهلي».. وقبله كتابيكم: «نفسية بشار» و«نفسية أبي نواس»؟

– أعتقد أنّ من واجبي قبل أن أتحدّث عمّا حاولتُ أن أُقدّمه في دراستي للأدب القديم، أن أسجّل ديني العظيم الى الجيل الذي سبق جيلي، وهو جيل الأفذاذ الكبار.. جيل طه حسين، والعقاد، والمازني.. هؤلاء هم الذين مهدوا لنا الطريق حقيقة، وتغلّبوا على صعوبات جمة. هؤلاء هم الذين احتاجوا الى قدر أعظم من حرية الفكر.. من الدعوة الى الدراسة النزيهة المحايدة... ونحن إنّما سرنا على الدرب الذي شقوّه لنا، وفي الطريق الذي فتحوه لنا بتضحياتهم..

لكنّي لما جئتُ الى ما أعطونا وجدتُ أنه، بالطبع، محدود بحدود الثقافة. فالرواد، كما تعرف مهما يكن من عبقريتهم، محدودون دائماً بحدود الريادة.. بمجرد أنهم الأول في ميدانهم.

خذ مثلاً أُستاذي العظيم الدكتور طه حسين.. ثقافته، في الحقيقة، كانت محدودة بنوع من الثقافة تسمّى الآن «الثقافة الكلاسيكية».. وهي الثقافة التي كانت تُدرَّس في فرنسا في آخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين..

خذ الاستاذ الكبير، فقيدنا العقاد: ثقافته [في] معظمها مبنية على دراسته للشعر الرومانسي الانكليزي العظيم في الثلاثين سنة الاولى من القرن التاسع عشر، ثم حركة النقد الخصيبة التي حدثت طوال القرن التاسع عشر. ثم توقف هنا.

لكن حين نشأ الجيل الذي أنتمي إليه نشأت دراسات جديدة.. نشأ مفهوم جديد للأدب. مثلاً المفهوم الغالب على ذلك الجيل السابق كان مفهوماً أرستقراطياً، إنْ حقّ لنا أن نستعمل هذا التعبير..

ليس معنى هذا أنهم دعوا الى الانفصام التام بين الأدب وبين الشعب. ولكن، لاشك أنهم آمنوا بتميّز الأُدباء عن بقية الشعب، واعتقدوا أن هذا التميّز يعطيهم حقوقاً خاصة.

أما الجيل الذي انتمي إليه فهو الجيل الذي بدأ من ناحية يعتقد أن الأدب ليس طرازاً مختلفاً من الناس، تحدث له تجارب مختلفة.. [إنما] هو إنسان عاديّ، تحدث له التجارب نفسها، لكنه قد أُوتي مزيداً من شحذ الاحساس، ومن المقدرة اللغوية الخاصة على التعبير عن التجارب العادية للبشر.

هذا كان منطلقي الأول..

في دراستي للشعر القديم كنتُ أُحاول، دائماً، أن أدرسه دراسة حريصة.. بمعنى أن أعود فأحاول أن أحيا بين أهله الذين كتب لهم، مستغلاً في ذلك إمكانيتنا الجديدة في التصوّر التاريخي في ما يسمّى: الاقبال التاريخي في مناهج البحث النقدية الحديثة. ولهذا لجأت، في كثير من الأحيان، الى محاولة غريبة استنكرها الكثيرون، ولا يزال الكثيرون يستنكرونها، وهي: أن أُترجم الشعر العربي القديم المسمى بـ «الكلاسيكي» الى لغة حديثة دارجة.. أو الى مصرية عامية. ومنطلقي هذا يقوم على خطأ الاعتقاد بأنّ هذا الشعر الجاهلي مثلاً كان في أيامه كلاسيكياً.. كان في أيامه محصوراً في طبقة ممتازة من الناس..

أنا أعتقد أن الشعراء الجاهليين كانوا ملكاً لشعبهم، وكانوا يعبّرون عن أحاسيس قومهم.. بل أعتقد أن لغتهم، بالطبع، كانت لغة شعرية متميزة، منتقاة، لكنّها كانت قريبة جداً من لغة الحياة الشائعة في عصرهم. هذا اعتقاد يصعب جداً على القراء المعاصرين أن يسلّموا به.. لأنهم حين يقرأون الشعر الجاهلي مثلاً يجدون فيه الألفاظ الوعرة، والأساليب العسرة، فينسون إنما هي وعرة وعسرة، في الغالب، علينا الآن، وأنها في عصرها كانت شائعة ومألوفة، كلغة شكسبير في أيامه في العصر الأليزابيتي مثلاً. فأنا أحاول في دراستي الشعر القديم أن أُقنع القارىء الحديث أنه بقليل من المجهود يستطيع أن يجد في ذلك الشعر القديم ترجماناً خصيباً، مغنياً، مشوقاً، ممتعاً لكثير من العواطف الانسانية التي لا تزال خالدة. وأنت تعرف أن الإنسان الحديث، على الرغم من تطوره العظيم، العلمي والفكري، لا يزال قريباً الى حدّ مذهل، من الناحية العاطفية، من تجاربه الحيوية.. قُلْ من ناحية مواقفه الانسانية على رحب هذه الأرض، من ذلك الانسانَ القديم.

إذاً، الشعر، والفن عموماً لا يزال تسجيلاً رائعاً لتجاربنا البشرية إنْ أقبلنا عليه الاقبال الصحيح.

هذه ناحية من نواحي المنطلق الجديد حاولتُ أن أُقبل به على دراسة الشعر القديم.

الناحية الثانية هي أن جيل الروّاد الذي سبق جيلي كان، في أغلب حكمه على الأدب، أقرب الى الانطباعية، والى التأثرية، والى العفوية. لا أعني بهذا أنه لم يحاول أن يقنّن إنفعالاته... فقد حاول هذا. لكن خذ طه حسين مثلاً: لا يزال يغلب على نقده الطابع المباشر، الانفعالي، الذي يعبّر عن ذوقه، استحساناً أو استقباحاً، دون أن يحاول أن يستبطن الأسباب التي قد تكون من وراء انفعاله هذا.

★ هل تعني بهذا عدم وجود نظرية نقدية، أو منهج يدعم نقده هذا؟..

– لا.. ليس هذا بالضبط. هو عنده النظرية التي يؤمن بها كل الايمان.. لكن هي النظرية الكلاسيكية الجمالية الخالصة: إن الشعر، أو ان الفن وجد للمتعة الفنية (لا أُريد أن اقول: للرفاهية الفنية)، إنما وجد للمتعة الفنية فحسب.

★ أي أن القصور هو في منهج الدكتور طه حسين..

– نعم، في المنهج. [فهو] له منهج يؤمن به، ويخلص له، ويطبقه.. وهذا المنهج – لا بّد أن أضيف – منهج حسن – وصالح الى حدّ.. وقد أثمر في استكشاف الكثير من أدبنا القديم..

★ ولكن هذا كان في البداية..

– في البداية.. فهو كان نافعاً لوقته، خصوصاً إذا

قارنته بالمنهج العقيم، المجدب، غير النافع الذي كان يدرس به الأدب في عهد طه حسين...

لكن منذ ذلك الوقت تجدّدت مذاهب دراسة الأدب... فهمنا علاقة الأدب بالحياة فهماً أعمق.. فهمنا علاقة الأدب بمشكلات الانسان الاقتصادية والمادية مثلاً.. بمشكلاته الاجتماعية فهماً أدق.. فأدرك الناقد الأدبي الحديث أنه لكي يتقن نقد الأدب لا يكفي أن يقبل عليه الاقبال الجمالي الذي كان يتخذه طه حسين، وكان يتخذه العقاد والمازني أيضاً الى حدّ كبير.. بل يجب أن يدخل فيه، أو يستعين عليه بكثير من المناهج العلمية. وكانت هذه معركتي الأولى مع أساتذتي: طه حسين، والعقاد، والمازني.. إذْ ادعيتُ في أول كتاب نشرته، وهو كتاب: «ثقافة الناقد الأدبي» أنك لكي تكون ناقداً أدبياً ناجحاً يوفيّ النقد الأدبي حقّه فلا بدّ أن تكون مسلحاً بثقافة علمية (Scientific) ، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.

مثلاً: المعركة التي ثارت حول دراسة علم النفس الحديث... في عهد الدكتور طه حسين لم يكن «المذهب الفرويدي»، أو «مذهب التحليل النفسي» قد نشأ بعد... أو إن كان قد نشأ فإنه كان لا يزال ميدانا للتصارع بين القبول والرفض من علماء النفس أنفسهم. أما حين جاء جيلي، الذي شبّ بعد جيل طه حسين، فقد صار ذلك المذهب مقبولاً في علم النفس من ناحية، وفي تأثيره على سائر العلوم من ناحية أُخرى. ولذلك ارتأيت في بعض كتبي: اننا لا نستطيع أن نجيد دراسة الأدب إن لم نفهم الأسباب المادية - العلمية.. الظواهر الكونية.. الظواهر الحيوية.. وأخيراً البواطن الانسانية العميقة التي تكمن وراء هذا الانتاج الأدبي، والتي تدفع الأديب دفعاً واعياً أحياناً، ودفعاً غير واع في احيان أُخرى، الى أن ينتج أدبه..

فهذا كان منطلقي الثاني الذي حاولت به أن أُضيف لبنة قد يكون فيها شيء من الجدّة الى النقد الأدبي.

★ من خلال دراستك التراث العربي، هل لك أن تقول لي - في ضوء قناعاتك النقدية - الى أيّ مدى يستطيع هذا التراث، في دراستنا له من منطلقات جديدة، أن يُسهم في عملية بناء الواقع الثقافي العربي الجديد وفق مقاييس حضارية عصرية؟

- أولاً، هذه قضية مفروغ منها ولا داعي للاطالة فيها. إنّ كل انسان عنده ذرّة من العقل لا بدّ أن يُسلّم بأنه لا يمكن لأُمة أن تفصم بين حاضرها وماضيها، مهما يكن من ثوريتها.. مهما يكن من حاجتها الى التجديد الشامل.. لأنّ الانسان ليس كالإله الخالق.. الانسان لا يبني من العُدْم والامة لا تكوّن من لا شيء.. وأنتَ تعرف جيداً أن النهضة الأوروبية العظيمة نفسها، التي تعتزّ بها أوروبا علينا الآن، إنما بدأت باحياء تراثهم القديم... وهكذا سمّوها «اعادة إحياء».. «إعادة بعث» (Renaissance) ، فنحن لا يمكننا أن ننبذ ماضينا.. لا يمكننا أن نستغني عن تراثنا.

قال بعض المفكرين، في مصر خاصة، في مطلع هذا القرن بهذا. لكن يجب أن نعذر لهم هذا الخطأ الى حدّ.. فإنه كان تطرّفاً في الناحية النقيضة.. حاولوا أن يعدلوا كفّة الميزان ضدّ الآخرين الذين كانوا يؤمنون بقدسية التراث.. كانوا يفهمون التراث بالفهم المتحجر الذي يعني أننا مطالبون بأن نتمسك بكل شيء فيه، صالح أو طالح.. نافع أو غير نافع. أما نحن الآن فندعي لأنفسنا الحقّ في أن ننقد هذا التراث، وأن نستبقي منه صالحه، وأن ننبذ منه ما لا نعتقد أنه نافع لنا الآن.

لكننا جميعاً إن كانت لدينا، كما قلت، ذرّة من العقل، لا نحاول أن نفصم بين حاضرنا وبين ماضينا.. لا نحاول أن نؤسس مستقبلنا على غير دعائم متينة نستمدها من ماضينا. وإن كانت دراساتي النقدية قد دلّلت على شيء فإنني أعتقد أنها دلّلت على أن تراثنا فيه من الغنى.. فيه من العمق.. فيه من الدسامة.. فيه أيضاً من الامتاع.. من الفكاهة.. من مجرّد اللذّة ما يكفي كلبنة أولى نبني عليها ونضيف لها. والقضية هي أن نقنع شبابنا.. شبابنا الذي لا يعتقد هذا في أدبنا القديم.. شبابنا الذي لا يجد تسليته، في الغالب الآن، إلاّ في الانتاجات الغربية.. في فن الرواية، أو في السينما، أو في غيرها... أن يقنعوا بأن في تراثنا حقاً ما هو مفيد، وماهو لذيذ في الوقت نفسه.

★ وأنتم درستم التراث العربي في ضوء منهج حديث معاصر.. فحلّلتم الظواهر في ضوء المعطيات الفكرية والحضارية الجديدة.. ولا بدّ أنكم، في عملكم هذا، قد انطلقتم من يقين معيّن.. وربما اهتديتم الى يقين آخر...

- ربما أُوافقك على جزء.. وربما لا أُوافقك على جزء. فحين تقول: إنني قد انطلقت من عقيدة بدأتُ بها، فأنا أرجو أن لا يكون هذا صحيحاً.. لأنّ أول درس تعلّمته عن

طريق أُستاذي طه حسين هو أن يُجرّد الباحث نفسه تجريداً تاماً من كل فكرة سابقة. وحينما نقول: «تجريداً تاماً» فإنما نعني الى الحدّ الذي تستطيعه النفس البشرية.. فما من نفس بشرية تستطيع التبرؤ التام من الهوى السابق بالطبع. كل ما أستطيع [قوله] هو أنني، في محاولتي دراسة الأدب القديم، حاولتُ أن أُقبل عليه، كما يقول الفيلسوف الانكليزي، بذهن مفتوح.. بذهنٍ خالٍ من كل هوى أو فكرة مسبّقة... أن أُقبل عليه إقبالاً جديداً، مستغلاً ما ربما اكون قد اكتسبته من دراسة آداب أُخرى حديثة، لا لغرض العسف بالتطبيق أو إقحام القواعد، إنما بذهن قد يكون نال قدراً من التوسع، أو بذوق ربما يكون قد اكتسب شيئاً من الشحذ.. أقبل به، أو أدعو الناقد العربي أن يوقظ بلاده على تراثنا القديم، ليعيد النظر فيه، ويستكشف روائعه، ويعيد عرضها على جيلنا المعاصر.

أما ما انتهيتُ إليه، فهو أولاً، هذا اليقين الذي سبق أن أشرتُ إليه، بأنّ في أدبنا من المتعة، ومن الفائدة الدسمة ما يكفينا جداً لكي نبني الأساس الذي نقيم عليه ثقافتنا الحديثة. لستُ أدعو الى عزلنا عن ثقافة الغرب مثلاً.. لستُ من الذين يعتقدون أن العروبة هي أن ننحبس في أوطاننا، وأن نغلق جميع نوافذنا وأبوابنا دون تأثير الثقافات الأُخرى. فأعتقد أن كل كتبي ضدّ هذا..

لكني، من ناحية أُخرى، لستُ من الذين يعتقدون أنه ليس لأدبنا القديم ما يفيدنا، واننا يجب أن نبدأ منذ البداية بتقليد ما هو أجنبي، أو بنقل ما هو مستغرب عن بلداننا.

★ لكنك، على ما أذكر، كنت في كتابك «ثقافة الناقد الأدبي» قد هاجمت المناهج النقدية السائدة في النقد الأدبي العربي، وسفّهت آراء كثير من نقاد عصرك... وهذا يدلُّ في ما يدلُّ، على أنك تنطلق من يقين نقدي ثابت، أو من عقيدة نقدية متبلورة في التعامل مع النصّ الأدبي، وفي تحليله..

– نعم.. أنت محق، بلا شك، في هذا التقرير الذي قلته عن الكتاب. لكن لا تنسَ أن هذا الكتاب لم اكتبه أنا إلاّ بعد ما يقرب من عشرين سنة من الدرس والبحث الذي بدأته بذلك الذهن المفتوح الذي قلت.. فأنا في الكتاب أُحاول أن أسوق الى القارىء العربي النتيجة التي انتهيتُ إليها من عشرين سنة من الدراسة التي أظنّ أنني حاولتُ فيها أن أبدأ بحثي مستأنفاً من غير فكرة سابقة. ولعلك تذكر، من ذكرياتك عن هذا الكتاب، أنّ معركتي الاولى فيه كانت ضدّ الطريقة العقيمة الفاسدة المشوّهة التي يُدرَّس بها الأدب العربي في مدارسنا الابتدائية والثانوية.. طريقة آليه تكره الشبان فيه وتنفرهم منه بدلاً من أن تُحببهم فيه وتفنعهم بمتعته وبفائدته..

ثم كانت معركتي الثانية مع كبار نقادنا في هذا الموضوع بالذات الذي أشرت إليه منذ قليل، وهو اعتقادهم أنه تكفي الثقافة الأدبية الخالصة في فهم الأدب. فأقمتُ معركتي، من ناحيته، مع أُستاذي الدكتور طه حسين.. ومن ناحية [أُخرى] مع تلميذه الاستاذ المرحوم الدكتور محمد مندور، في اعتقادهما أن الثقافة الفنية الأدبية الخالصة تكفي لاستكمال الناقد لأدواته النقدية، وحاولتُ أن أُبرهن أنّ ناقد الأدب يحتاج أيضاً الى ثقافة علمية واسعة.

هناك معارك جانبية أُخرى استأنفتها في كتب لاحقة. مثلاً: معركة الأدب والحياة.. إرتباط وجوهه الارتباط التام بين الأدب وبين تجارب الحياة الانسانية في الواقع...

★ وكتبتَ أيضاً عن الشعر العربي الجديد ومعركته. وهنا أودّ لو نتوقف عند مفهومكم للحداثة في الشعر أولاً..وهل ترون أن شعرنا العربي الجديد استطاع أن يكون «حديثا» بهذا المعنى؟ وما مدى الاضافة التي حققها الى تراث الشعر العربي؟

– يُسعدني أن تُوجِّه لي هذا السؤال.. لأن الحقيقة التي حدثت هي أنني كتبتُ معظم كتبي أولاً في دراسة الأدب القديم ومحاولة استكشاف روائعه، ولم آتِ الى دراسة الأدب الحديث، أو كما أُحب أن أُسميه: «الشعر الجديد» إلاّ في ما بعد، حيث أن الكثيرين من قرّائي دُهشوا من هذه المحاولة، وظنّوا فيها انتكاساً وارتداداً، وقالوا: كيف أن محمد النويهي الذي كان يكتب لنا عن امجاد الشعر القديم، وعن روائع الشعر القديم، ويحاول أن يقنعنا بأنّ شعرنا القديم فيه متعة، وهكذا، وهكذا.. كيف ينقلب الآن فجأة ويرتدّ ويؤيد هذا الشعر الجديد، السفيه، التافه... إلخ...

★ تعني قراءك من الكلاسيكيين المتعصبين للقديم؟

- نعم.. الكثيرون منهم على أي حال.

.. وحاولتُ أن أردّ عليهم في فصل أضيفه في ختام الطبعة الاولى من كتابي: «قضية الشعر الجديد»، وأذكر أن عنوانه كان: «عشاق القديم أنصار الجديد».. وهي أننا إذا كنّا نُحبّ الأدب العربي حقاً، ونحبّ اللغة العربية حقاً، فإن التعبير الحكيم عن هذا الحبّ هو الرغبة في مساعدتها دائماً على استدامة التطوّر.. وإلاّ كنّا كالأُمّ الجاهلة التي تُحبّ وليدها فتحبّ أن تستبقه وليداً طول عمره حتى لا ينفصل عنها..

فالقضيتان، في الحقيقة، ليس بينهما تنازع. إن كان هناك تناقض فهو ظاهري محض.

كل حريص على هذه الحيوية فإنه يجب أن يعمل، من ناحية، على إحياء التراث القديم وإبقائه في الأذهان والاحتفاظ به مدداً لروح الأُمة.. وأن يعمل، من ناحية أُخرى، على دوام تنميته وتطويره وتغييره شكلاً ومضموناً. فإنك تعرف أن الفرق بين الحياة والجماد هو التغيّر. الجبل وحده هو الخالد، بمعنى عدم التغيّر. وأما الكائن الحيّ فإنه إنما يبقى حياً ما احتفظ بقدرته على التغيير.. على التشكيل.. على التكيّف. هذا ينطبق على اللغة، واللغة العربية ليست مستثناة من هذه القاعدة، لأن اللغة العربية، في أصلها، لغة بشرية تنطبق عليها كلّ القوانين التي تنطبق على كل اللغات. وأدبنا العربي القديم، مهما يكن من أمجاده وروائعه التي حاولتُ جهدي أن أُبيِّنها، فإنه كان قد وصل الى مدىً استنفد فيه تلك العبقرية الخاصة... فكان مكتوباً عليه شيء من شيئين:

إما أن يمضي في اجترار ماضيه.. في تكراره تكراراً لا فائدة فيه، حتى ينتهي الى الاضمحلال والفناء..

وإما أن يحدث تغييراً مفهومياً جديداً لكلا المضمون والشكل في الأدب، نثراً وشعراً. وهذا هو الذي حاولته. فأنا أعتقد أن دفاعي عن الشعر الجديد ما كان خروجاً عن دفاعي عن الأدب القديم، وإنما هما جانبان للعقيدة نفسها: إنّ الأُمة التي لها مجد قديم، والتي تريد أن تحتفظ بمجد حاضر، والتي ترنو الى مجد مستقبل، يجب أن تدرك أنّه لن يتحقق لها شيء من هذا إلاّ إذا كانت مستعدة دائماً للنمو والتطور والتغيير... الى آخر ما تقتضيه سنن التغيّر في الكائنات البشرية.

بغداد